سلسلة مطويات شبكة بينونة

كلمة في التواضع

الشيخ
يوسف بن حسن الحمادي

@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE
www.baynoonanet.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، **أمَّا بعد:**

فلا يخفى على مسلم أنَّ من مقاصد البعثة النبوية الدعوة إلى الأخلاق الحسنة، والتحذير من كل خُلُق رديء، وسيكون الحديث في هذه المقالة عن خُلُق يحتاجه كل فرد من أفراد المجتمع، يحتاجه الأب مع أبنائه، والأم مع أولادها، والرجل مع زوجته، والمرأة مع زوجها، والمدرِّس مع طلابه، والجار مع جاره، والمدير مع موظَّفِهِ، والموظف مع مراجعيه، والطبيب مع المرضى، والداعية مع المدعوين، وغيرهم، ألا وهو خُلُق التواضع.

وهذا الخُلُق له أهمية كبيرة وثمرات نافعة، وعواقب حميدة، فهو خُلُق يمنع التفاخر والتعالي على الناس، وبه يُغلَق باب العدوان عليهم، وبه صلاح القلب ونقاء الصدر، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يَفْخَر أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبْغي أحدٌ على أحدٍ**»[١]، وهذا يفيد أنَّ التواضع يسُدُّ بابين من أبواب الشر:

[١] رواه مسلم (٢٨٦٥).

الباب الأول: التفاخر وهو التعاظم، وذِكْر محاسن النفس والترفُّع على الآخرين إعجابًا بها وتيهًا -والعياذ بالله-.

الباب الثاني: باب البغي وهو التعدِّي ومجاوزة الحد في الظلم.

وممَّا يُبيِّن ضرورة التواضع ما يترتب عليه بإذن الله جَلَّوَعَلَا من الأُلفة، وتقارب القلوب، واجتماع النفوس، وإلى هذا يشير قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أكْمَل المؤمنين إيمانًا أحاسنهم أخلاقًا، المُوَطَّؤون أكنافًا** -أي: المتواضعون ليِّنوا الجانب- **الذين يألِفون ويُؤلَفون، ولا خير فيمَن لا يألِف ولا يُؤلَف**»[١].

فالمتواضع سريع الأُلفة، قريب المودَّة، ليِّن الجانب.

ومَن تحلَّى بهذا الخُلُق رَفَعه الله جَلَّوَعَلَا بين خَلْقه، وأعلى منزلته بين عباده، فأحَبَّته القلوب، ومالت إليه النفوس، ورغبت في مجالسته والقُرب منه، يقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وما تواضَع أحدٌ لله إلَّا رفَعَه الله**»[٢]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أيضًا: «**ما من آدمي إلاَّ في رأسه حَكَمَةٌ بيَد مَلَك، فإذا تواضع قيل للمَلَك: ارفَعْ حَكَمَتَهُ، وإذا تكبَّر قيل للمَلَك: ضَعْ حَكَمَتَهُ**»[٣]، والحَكَمَةُ هي: ما يُجعل تحت حنك الدابة، وذلك لمَنْعِها من المخالَفة كاللجام ونحوه، وهذا يعني: أنَّ العِز والذل والخَفْض والرفع بيد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

[١] رواه الطبراني في المعجم الصغير (٦٠٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٢٣١).
[٢] رواه مسلم (٢٥٨٨).
[٣] رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٩٣٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٩٥).

إذا كان هذا شأن التواضع، فإنَّ حقيقته هي قبول الحق والاستجابة لداعي الخير، والانقياد لمراد الله تعالى والتسليم له، وخَفْض الجناح للناس، ولين الجانب لهم، والرفق بهم، وهذا المعنى مأخوذ من مفهوم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكِبْر بَطَر الحقِّ، وغَمْط الناس**»[١]، إذًا: فمفهوم التواضع هو قبول الحق، ولين الجانب للناس، والتحَبُّب إليهم، والتودد لهم، وعدم احتقارهم أو ازدرائهم.

وبهذا المعنى جاءت الآثار عن السلف الصالح رضي الله عنهم وأرضاهم، فقد سُئِل الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ عن **التواضع** فقال: «**أن تخضع للحق، وتنقاد له، ولو سمعته من صبيٍّ قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه**»[٢].

وقال غيره: خَفْض الجناح ولين الجانب.

وبهذا تتبيَّن للقارئ جزئية هامَّة وهي علامات التواضع، والأمارات التي تدل عليه.

وممَّا تقدَّم يتبيَّن أنَّ المتواضع يقبل الحق، ويُثمِّن النصيحة التي تُبذَل له، والخير الذي يأتيه من الآخرين، ويعترف بخطئه، ويبدأ مَن لقيه بالسلام، ولا يحبّ الظهور، ويفر من المدح والثناء، ويكره التزكية والإطراء، ولا يتمادى في الشر إذا وقع فيه، ولا يُعجب بنفسه، ويُقدِّر الناسَ، ويحسن معاملتهم، وينسب

---

[١] رواه مسلم (٩١).
[٢] حلية الأولياء (٨/ ٩١).

الفضل إليهم إن أحسنوا إليه، ويرضى بالدون من مجالسهم فلا يبرز فيها ولا يتقصد الجلوس في صدرها، ويتبسَّط مع الناس، فلا يحتقرهم ولا يزدريهم ولا يلتفت إلى جنس أو عِرْق أبدًا، حالُهُ كما قال الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة :٥٤].

وهكذا كان نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخِيط ثوبه، ويخصف نعله، أي: يخرزها، ويعمل ما يعمل الناس في بيوتهم، فقد سُئِلت أُمُّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: ما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنع في أهله؟ قالت: «**كان في مهنة أهله -أي: خدمتهم- فإذا حضرت الصلاةُ قام إلى الصلاة**»[١]، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صافَحَ الرجل لم ينزع يدَهُ من يد الرجل حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يَدَهُ من يَدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يأنف ولا يتعالى أن يمشي مع الأرملة ومع المسكين ليقضي لهم الحاجة، وكان يزور الأنصار، ويسلِّم على صبيانهم، ويمسح على رؤوسهم، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة -أي: يجعل رجليه بين قوائمها ليحلبها-، وكان يقول: «**آكُلُ كما يأكُل العبدُ، وأجْلِس كما يَجلِس العبدُ**»[٢]،

---

[١] رواه البخاري (٦٠٣٩).

[٢] رواه أبو يعلى في مسنده (٤٩٢٠)، وانظر: سلسلة الأحاديث

إلى غير ذلك من صور تواضعه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وخَفْضه الجناح الناس.

وخِتامًا يقال: إنَّ على المتواضع أن يحرص على سلامة نيَّته وإصلاح قصده في التواضع؛ فإنَّ التواضع من الدِّين وهو وقربة إلى الله رب العالمين، بل هو من أجلِّ العبادات وأشرفها، وإلى هذا أشار عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «**وما تواضَع أحدٌ لله إلَّا رفَعَه الله**»[١]، فمَن تواضع لله رفعه الله، ومَن لم يتواضع لله -والعياذ بالله- يَخْفِضه الله جَلَّ وَعَلَا.

وتنبيه آخر وهو: أن يحرص المتواضع على التأسِّي بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتخلُّق بأخلاقه، سواء في بيته أو في عمله أو في حَيِّه أو في مسجده وفي سائر أحواله.

وبهذا يحقق المتواضع شرطَي قبول العمل واعتباره عند الله وهما: الإخلاص لله تعالى وطلب مرضاته، والمتابعة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتأسِّي به.

أسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يُبصِّرني ومَن يقرأ هذه المقالة بدِينه، وأن يُزيِّنني وإياه بأخلاق الإسلام، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الصحيحة للألباني (٥٤٤).

[١] سبق تخريجه.